

## تعليق على بحث « الإبعاد التاريخية لازمة التطور الحضاري العربي » للدكتور شاكر مصطفى

وكلتاها تتم الأخرى . ولكن حياة البداوة القائمة على عدم الاستقرار والترحال والانتجاع كثيرا ما كانت عامل غزو وهم ، وفرض سلطة وضريبة « خوة » على المجتمع الريفي والحواضر المدنية . يضاف الى ذلك ان البيئة الزراعية ، بحياتها الروتينية التي لا تتغير ، تركت آثارها عميقة . فالفلاح بطبيعته في بلادنا محافظ ، حياته بسيطة ، متطلباته محدودة ، وآماله قاصرة ، والمحراث الروماني القديم ظل يشق تراب الأرض منذ مئات السنين ولم يتغير ، والطرق الزراعية بقيت على حالها لم تتطور . هذا فضلا عن ان الأفكار والعادات والتقاليد تجد ، في هذه البيئات الطبيعية ، صناديق للدخار ، وخزائن للحفظ . والسؤال الذي نطرحه على انفسنا هو كيف يمكن تحريك هذا الجمود ، وكسر « الروتين » اليومي ، واخراج هذه الاوساط من عزلتها وقلبها رأسا على عقب كما يقلب المحراث التراب .

### قضية الرجوع الى التاريخ :

النهضة العربية الحديثة ، كسائر النهضات التي سبقتها او رافقتها ، آلت من بعد الى تشكيل الدولة القومية ، اعتمدت على التاريخ ، وجعلت منه مقوما اساسيا من مقوماتها القومية . والقومية رجعة الى الذات ، الى الانا ، الى القوم ، الى العنصر المميز ، الى الاصل ، الى الماضي . والتاريخ العربي بمحتواه الواسع العريض ، يضم في تضاعفه كل ما انتجته البشرية العربية في عهدها المديد من اعمال مجيدة ومن تراث حضاري . فهو ، في هذا الاعتبار ، ذاكرة العرب الحية ، وسجلهم الحافل بالامجاد والالام . وللعرب اليوم يرجعون الى تاريخهم لا ليعتزوا به فحسب ، بل ليتخلوا منه عبرة ودرسا . ويتعرفهم على تاريخهم يزداد شعورهم بوحدة امتهم وحضارتهم ، وتطلع آمالهم الى خلق حضاري جديد يصل حاضرمهم بآبائهم ، ليتألف من كل ذلك كتلة اتصال قوية متماسكة تساعد على بناء المستقبل .

والقضية التي يضعها التساؤل هي انقاذ الجماهير من المفهوم السكوني للتاريخ ، وتفسيره الخاطئ بالنوم على امجاد الماضي واتخاذ « مهريا » « وقارب نجا » للفرار من الحاضر . ولا انكر ان التاريخ قد استخدم في حاضرننا المعاصر ، وضرب على وتره كثيرا ، وان هذا الايقاع يتزايد يوما بعد يوم . ولعل تفسير هذه الظاهرة يرجع الى اننا ما زلنا بعد في مطالع حياتنا القومية الجديدة ، وان حركة القومية العربية والوحدة العربية تشغلنا وتملا نفوسنا وتفرع اسماعنا . ودعاة القومية ولا شك ، يرجعون الى التاريخ ، وهو في فكرهم التاريخ المتحرك النابض بالحياة ، المتطور والمتجدد على الدوام ، لانه جريان

يطيب لي ان اشكر الاخ الكريم الدكتور شاكر مصطفى على بحثه الخير المعطاء في « الإبعاد التاريخية لازمة التطور الحضاري العربي » . فلفد جال في رحابه جولات موفقة ، وتناول ابعاده بالبحث والتنقيب والفوس في اعماقها ومثاقها ، والوصول الى مجاهيل بعيدة عنا تطورت عبر الزمان والمكان ، وتركت آثارها الباقية في اعماق نفوسنا ، وما زلنا ننائر بها في مجتمعنا العربي عن وعي وغير وعي الى ان وصلت به الى ما هو عليه من تخلف نشكو استمراره بعد ان عصفت بنا رياح التغيير مؤذنة بالخطر وفداحة البقاء على الماضي التاريخي ومخلفاته التي اصبحت لا تتماشى وروح العصر . ولقد عالج الدكتور شاكر هذا البحث بقوة التحليل التاريخي وسحر البيان المشرق ، فجمع بين العلم والفن ، ومالي ، بعد ، من سكرين من بد .

ازمة التطور الحضاري ، في وطننا العربي ، تتجلى في هذا التناقض الذي يبدو واضحا بين معياناتنا التاريخية ، وما وصلت اليه حضارة العصر من تطور متسارع . ونحن على عتبة هذه الحضارة في حالة تردد وارتابك بين ما يجب ان نترك من نظم ماضينا جزئيا اوكلها ، وما يجب ان نأخذ من مسلمات الحاضر المتقدم . وليست هذه العملية بالتي يمكن تحقيفها بسهولة في الواقع . وازمتنا التي نعيشها هي كيف يمكن ان نتواءم وتلائم وتنكيف مع هذه الحضارة الحديثة التي ليس لنا فيها يد ، الا في ماضيها السحيق . وقد يكون احساسنا بالمستقبل وخوفنا على اجيالنا الالية ، مع ما نحن عليه من تخلف امام مد الحضارة الصاعد ، مما يزيد في اتساع المسافة وعمق الهوة ، ويجعلنا نمترف سلفا اننا غير قادرين على اللحاق الا باليسر البطيء جدا .

لقد انطلق الدكتور شاكر في بحثه من واقع العرب الحاضر ، وتناول اطره الكبرى التي تشكل وحدة متكاملة وهي :

- ١ ) مستوى الفكر التاريخي وعلاقة الانسان العربي بالزمان ، ومستوى الحياة العربية نفسها .
- ٢ ) نظام السلطة .
- ٣ ) العلاقات الاجتماعية .

٤ ) المعطيات التراثية في الفكر العربي ( الايديولوجية الفكرية . اللغة والتعبير ) .

وقد يسبق الوقت اذا اخذت كل نقطة من هذه النقاط وحاولت ان اشرح الانطباعات الكثيرة والتساؤلات الجمة التي تدور حولها ، ولكنني اجملها بما يلي :

**البيئة الحضارية :**

الحضارة العربية انتشرت في بيئتين بعوية وريفية متجاورتين ،

مستمر ، وبناء متكامل مع الزمان ، لا يقف عند حد ولا رجعة فيه الى الوراء ، انه خلق وابداع لا يعرف التقليد والمحاكاة . هكذا يفهمه العرب القوميون . واذا حانت منهم التفاتة نحو الوراء فليجمعوا القوى المتباعدة في الوطن العربي ، ويؤلفوا بينها ، ويوحدوا امكانياتها لتحقيق الذات القومية ، والانطلاق منها الى الامام ودون رجوع . ولست بمنكر ، بعد ، ان بعض المثبات في بعض الاوساط العربية اساءت استخدامه لتبرير وجودها اكثر مما استخدمته لتقدم قومها .

يقول بول فاليري : « التاريخ اخطر العقاقير التي استحضرتها كيمياء العقل . ان خواصه معروفة جيدا . انه يشمل الشعوب ويولد فيها شتى الاحلام والذكريات الخاطئة ، ويبالغ في رد فعلها ، ويبقي جراحها القديمة حية لا تندمل ، ويزعجها في راحتها ، ويذهب بها الى هذيان العظمة او الى هذيان الاضطهاد ، كما يجعل الامم فظة غليظة القلب متفترسة » .

### قضية تبديل الاحكام بتبديل الأزمان :

واثير هذا التساؤل لم لا تبديل الاحكام بتبديل الأزمان ؟ !

ان المشاكل المعاصرة وما يكتنفها من صعوبات وتعقيدات تتطلب حلولا ملائمة وسريعة . وهذه المشاكل ، بذاتها ، تختلف كل الاختلاف عن المشاكل السابقة ، ولكل عصر معيياته ، وحلها لا يكون بالرجعة الى التاريخ والبحث في ثنايا الماضي ، لان التاريخ يبرر كل ما يراد ، ويعطي امثلة من كل شيء ، انه بحر زاخر بالنماذج والقواعد والامثولات ، وما على المختار الا ان يختار . وعندما تطرح المشاكل وتتطلب منا حلا ، نلتفت الى السوابق ونلجا الى التقليد عوضا عن ان نتبين حالتها الراهنة ونتفهمها جيدا ونبدع في حلها . وهكذا يفذي التاريخ . ونحن في هذا العصر يكفيننا ضغط الاحياء ، ولا نريد صراحة ان نحكم بالاموات . لقد اجتهد الاجتهادون الاوائل بما فيه الكفاية بقدر ما سمحت به ظروفهم وثقافتهم ، وكانوا مجتهدين حقا ، لانهم جابها قضايهم وعرفوا كيف يحلوها . اما نحن فما زلنا نترسم خطاهم ونبحث عن حلول مشاكلنا عندهم ، وهم غير قادرين حقا على حلها ، لاختلاف الأزمان والكان والبشرية . ولقد ان اوان الاجتهاد الجديد بما تقتضيه روح العصر الحديث ، وعلى ضوء العلم الجديد والظروف الموضوعية المتغيرة ، واعادة النظر بالتراث القديم ، والقيام بحركة انسانية عامة تتحرى آثار السلف وتخضع نصوصها لقواعد النقد العلمي وتقييمها من جديد .

### قضية التراث الفكري العربي ومعطيائه

وهناك تساؤل حول التراث الفكري ومعطيائه . يقول الدكتور شاعر :

« ولعلنا نستطيع دون كبير ابتعاد عن الواقع ان نرد النسيج الاولي لمعياتنا الفكرية التراثية التي ما بين اواخر العصر الاموي ومطلع العصر العباسي الثاني . تلك الفترة الممتدة ما بين مطلع القرن الثاني الهجري واواخر القرن الثالث هي فترة الربيع في العطاء الفكري الاسلامي . ما كان بعدها فانما كان بياض الصيف ومواسم الثمر التاجح لقرن او قرنين ، ثم كان الذبول البطيء المتسارعة قرون . العلم الاسلامي ، بمختلف اسسه وطرائقه وفروعه ، انما وضع في تلك الفترة الخصبة ، فنحن عيال عليه الى اليوم . وعلوم الاوائل انما تعربت واصبحت قطعة من الثقافة العربية الاسلامية ، واخذت اقصى ابعادها في الفلسفة والطب والفلك والكيمياء ، في تلك الفترة ايضا ، فلم تصف اليها القرون التالية بعد النضج من جديد » .

وفي الحقيقة ان العمل الفكري بمد هذه الفترة لم ينقطع ، ولكن القرائح جف ميعها ولم تات بجديد . وبطل الابداع واخذ يلهث ولكن لم تنقطع انفاسه وترتب على ذلك ان لاقت الثقافة العربية دورا فولا ورعود . وهنا نتساءل ما سبب هذا الافول والركود ؟ هل يرجع الى

طبيعة الزاج العربي المعروف بالفورة الحماسية ، والملل السريع ، وضيق الصدر وقلة الصبر ثم الخمود ام ان الضغوط الداخلية المختلفة والخارجية المحيطة هي التي كانت لها عوامل تهديم ؟

### قضية الحكم في البلاد العربية :

وانار الدكتور شاعر في نفسه تساؤلا عن طبيعة الحكم في البلاد العربية . وقد بدأ هذا الحكم في الحياة العربية - الاسلامية ، عندما انتظمت امور المسلمين ، بالاعتماد على القرآن والسنة والشورى ، تأسيسا وتشريعا وتنفيذا . وما لبث مع الزمن ان اصبح استبداديا مستندا احيانا قليلة ، ومظلما احيانا كثيرة . هل يرجع هذا الانحراف الى النزعة القبلية ، او التسلط العسكري الاجنبي ، او الى عدم فهم الروح الاسلامية واساءة التطبيق ، او الى اختلاط المنافع الدينية بالمنافع الدنيوية ؟ وفي الحقيقة ان الفوز ، الذي عات في الارض العربية ، كان من طبيعته ان يحكم البلاد حكما عسكريا مع ما يلابسه من خوف ، ورياء ، وتقرب وزلفي الى الحكام .

وفي العصر الحاضر ايضا ، يشير الحكم العسكري تساؤلا : وهو لم ساد الحكم العسكري في بعض البلاد العربية ؟ ربما يكون الجواب في ان البلاد العربية قد حكمت طوال القرون الخالية بالحكم العسكري حتى الفته واعادت عليه وصار شيئا ملازما لها ، ونظرت الى الحكم الديمقراطي الحر الذي ساد فيها بعد الحرب العالمية الثانية ، بانه فترة غير طبيعية ، ولذلك عادت سريعا وقبيلت الحكم العسكري . ان التفسير الذي نراه هو ان البلاد العربية بعد الحرب العالمية الثانية كانت حديثة العهد بالحكم الديمقراطي ، وقد جابهت هذا الحكم مصاعب جمة اقتضتها ظروف البناء والانشاء من جديد وعجز عن حلها ، فمال الشعب العربي عنه ، والنسج الحل البديل عند دعاة الحاكم القوي الذي يحقق الامال وينقذ العرب ويحرر بلادهم من رجس الصهيونية . وهكذا بقي الحكم العسكري ولما تتحقق الامال . وبعد فهذا قليل من كثير .

ان العرب في واقفهم الحالي يواجهون التحديات التي تقف في سبيل تطورهم ووصولهم الى المجتمع العربي الامثل الذي يتظلمون اليه بلهفة وحنان . وان قدرتهم على مواجهة هذه التحديات والتغلب عليها تفتح امامهم سبل الخروج من واقفهم وتحقيق التطور المنشود . انهم يواجهون تحديات خارجية تمثل بالمطامع الصهيونية دون حدود ، ووجود دولة اسرائيل ، في قلب الوطن العربي الكبير ، وامالها التوسعية ، وفي النفوذ الامبريالي الساحق وتسلطه على البلاد العربية بما يحمل هذا التسلط من معاني سياسية واقتصادية وثقافية خطيرة . كما تواجه البلاد العربية تحديات داخلية في التفجر السكاني المتسارع . وهذا التفجر يضع قضايا كثيرة عندما يراد تحريك عجلة التقدم والقيام بالتنمية ، وتعميم الرفاه ، وتحقيق العدالة الاجتماعية ، والنطلع الى بناء المستقبل على اسس عقلانية تقوم مقام القواعد البالية التي لم تصد صالحة لهذا الزمان المتسارع التطور والتغيير .

ان الاستجابة لهذه التحديات لا تقبل الهرب او الامهال او المماطلة عندما يراد خلق حضارة عربية جديدة .

ان الاستجابة لهذه التحديات لا تقبل الهرب او الامهال او المماطلة عندما يراد خلق حضارة عربية جديدة . وهذه الحضارة بحكم ظروفها الموضوعية لا يمكن ان تكون استمرارا للحضارة الكلاسيكية بعد ان تغيرت الظروف . واذن لا بد من التكيف مع روح العصر . وعلى الفكر العربي العالم الثائر على الحاضر بئس قصارى الجهد ، وبكل ما اوتي من قوى خلافة ، ان يعمل على تحقيق التطور المنشود ليكون على مستوى رسالته التاريخية ، رسالة الانسان المثقف ومستوى مسؤوليته القومية .